أثر القراءات القرآنية في القواعد النحوية، الدر المصون أنموذجًا

دراسة تحليلية تطبيقية

The effect of Qura'nic Qira'at on the Arabic Grammar and Al-Dur Ul Masoon as a model, Applied Analytical Study

محمد إقبال*

قاسم عزام بهتة**

Abstract

There is no doubt that Holy Quran came down with all its *Qira'at* on our Prophet *Muhammad* (PBUH) in clear Arabic Language, which is the language of the *Quraysh*. The Arabs at first, were reciting Holy *Qura'n* with different *Qira'at* without falling in any melody in pronunciation and reading, and this was all well before the mixing of Arabs with *Ajam* after reaching the message of Islam outside the Arabian Peninsula in the regions of the Persians and the Romans. The Arabs needed due the remoteness of time and the occurrence of the melody in the language of the Arabs, to make rules of the language, syntax, which was taken from the *Qur'ān Qira'at* as one of its sources on which its rules are based on the difference between the scholars in the extent of *Qira'at.* Making the *Qira'at* a source of the rules of the Arabic grammar. According to the subject, this research paper will address this important issue by dividing it into the preamble and three sections and the conclusion as follows: Preface will discuss the importance of the topic and the reasons for its selection and weighting on other topics. The first section mentions the statement of the position of the grammarians of the *Qur'ānic Qira'at*. The second section contains the examples of the impact of the *Qur'ānic Qira'at* on Arabic grammar, whereas the third section will study of *Al-Durr ul- Masoon* and analyze the evidence contained regarding the impact of *Qira'at* on grammar.

Keywords: Qura'nic Qira'at , Arabic Grammar, Sameen Halbi, Al-Dur Ul Masoon

ومن الحقائق المسلمة أن كتاب الله نزل بجميع قراءاته على رسولنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم بلسانٍ عرَبِي مُّبين، وهي لغة قريش.

---

*أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد-

**أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد-

والعرب في أول أمر كانوا يقرؤون القرآن الكريم بقراءاته المختلفة بدون الوقوع في أي لحن في النطق والقراءة، وهذا كلُّ ما كان قبل اختلاط العرب بالأعاجم وانتشار رسالة الإسلام خارج الجزيرة العربية من مناطق الفرس والروم. فاحتج العرب لبُعد الزمن وحدوث اللحن في لغة العرب إلى ضابط للغة، فبدأ العلماء يدوِّنون علم النحو، والذي اتَّخذ من القراءات القرآنية مصدرًا من مصادره التي تبنى عليها قواعده على اختلاف بين علماء النحو في مدى الأخذ بالقراءات. وقد أدَّى جعل القراءات مصدرًا من مصادر قواعد النحو العربي حتى أصبح للقراءات أثر كبير على النحو، وتمَّ ارتباط القراءات بالنحو تمام الارتباط، وكذلك بتتبُّع ماورد من القراءات وما دار حولها في كتب النحو ومراجعه نُدركُ أنَّ أثر القراءات في هذا العلم قد ظهر في مذاهبه وآراء النحاة ومواقفهم من قواعد النحو.

فحسب مقتضى الموضوع سيتناول هذا المقال المتواضع هذه القضية الهامة من خلال تقسيمه إلى التمهيد وثلاثة مباحث والخاتمة كالتالي:

التمهيد: فيه بيانات أولية حول القراءات وأهميته.

المبحث الأول: فيه بيان موقف النحاة من الاحتجاج بالقراءات القرآنية.

المبحث الثاني: فيه إيراد الأمثلة لأثر القراءات القرآنية في القواعد النحوية.

المبحث الثالث: فيه دراسة الدر المصون وتحليل الشواهد الواردة فيه عن أثر القراءات في النحو.

الخاتمة: فيها نتائج البحث.

تمهيد:

فهذا بحثٌ موجز عن أثر القراءات القرآنية في قواعد النحو العربية وموقف النحاة من الاحتجاج بالقراءات القرآنية في النحو، فمن الثابت أن النحو العربي تنقسم أصوله إلى قسمين: أصول سماعية (نقلية)، وأصول عقلية، فأما السماعية هي تتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح من الشعر والنثر، وأما العقلية فتتمثل في القياس والتعليل... إلخ. والسماع هو الأصل الأول من أصول اللغة، وقد وصفه السيوطيفي كتابه الاقتراح قائلًا: "هو ما ثبَت في كلام مَن يُوثَق بفصاحته، فشمِل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم، وكلام نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بَعثته، وفي زمانه وبعده، إلى أن فسَدت الأَلسِنة بكثرة المولَّدين نظمًا ونثرًا عن مسلم أو كافر [1]

[1] جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ)، **الاقتراح في أصول النحو**، تحقيق حمدي عبد الفتاح مصطفى خليل،(مكتبة الآداب،ط٣،٢٠٠٧م)،٩٦

ويقول الدكتور عوض بن حمد القوزي: "الخطوات الأولى للدرس النحوي تتصل اتصالًا مباشرًا بالقرآن الكريم؛ إذ قامت لخدمته وحمايته من اللحن والتصحيف، ثم تطوَّرت فشمِلت بلاغته وإعجازه، وتعدَّتْ لدراسة تأويله وتفسيره، ثم دراسته دراسةً صوتية لمعرفة مخارج الحروف وتأثير بعضها في بعض، وبالنظر إلى كتاب سيبويه باعتباره أولَ كتاب في نحو العربية يصل إلينا، نجده يشتمل على هذه العلوم جميعًا – وإن لم يُسمَّها – ففي الكتاب نحو من أربعمائة آية قرآنية يَسوقها سيبويه للتدليل على بعض قواعد النحو، أو طُرق التعبير والأساليب اللغوية المتبعة" .[2]

مكانة الاحتجاج بالقراءات القرآنية

فالقراءة مادتها ترجع إلى (ق، ر، ي)، الذي يدل على كلمتين من الجمع والاجتماع؛ يقول ابن فارس: "قالوا: ومنه القرآن، كأنه سُمِّي بذلك لجمْعه ما فيه من الأحكام والقَصص وغير ذلك"[3]. وذكر علماء القراءات تعريفات متعددة للقراءة؛ فمن أهمها قول عبد الفتاح، وهو: "علم يُعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقًا واختلافًا، مع عَزْو كل وجه لناقله".[4]

مفهوم الاحتجاج وبداية ظهوره:

يقول الدكتور محمود أحمد الصغير: "ويُراد بالاحتجاج الكشفُ عن وجْه القراءة في نحوها أو صرفها أو لغتها، وتسويق الاختيار، وذلك بأساليب اللغة الأخرى – من قرآن وشعر ولغات–، ولا يُراد به توثيقُ القراءة، أو إثبات صحة قاعدة نحوية فيها..... لأن القراءة سُنة ثابتة صحيحة في عربيَّتها، وما الكشف عن وجهها والدفاع عنه، إلا نوع من الترجيح الذي يُتيح لصاحب الاختيار – فضلًا عن مبدأ الكثرة أو الاستفاضة – أن يَنتقي من هذه القراءات الكثيرة ما يطمئنُّ إليه في صلاته .[5]"

---

[2] ينظر: عوض بن حمد القوزي، الدكتور،"**الأصول بين الفقهاء والنحاة**"، مجلة الدارة، العدد٤، عام١٣، فبراير ١٩٨٨م،٩٠

[3] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين (٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٧٩م، ٥: ٧٩

[4] عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقَي الشاطبية والدرة، (بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، دون تاريخ)،٧

[5] محمود أحمد الصغير، الدكتور، **القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي**، (دار الفكر، ١٩٩٩م)،٢٠٦

مكانة القراءات القرآنية في النحو:

للقرآن الكريم مكانة مرموقة في قلوب العرب والمسلمين بصفة خاصة؛ لذا استمرت الجهود في مجال خدمته والمحافظة على نصه، فكان القرآن النص الأول الذي قام به علماء النحاة بالاحتجاج في إثبات قواعدهم؛ قال جلال الدين السيوطي في هذا الصدد: "أما القرآن فكل ما ورَد أنه قُرِئ به، جاز الاحتجاج به في العربية؛ سواءً كان متواترًا، أم آحادًا، أم شاذًّا".[6]

يقول الشيخ سعيد الأفغاني: "ولم يتوفَّر لنص ما توفَّر للقرآن الكريم من تواتُر رواياته، وعناية العلماء بضبْطها وتحريرها متنًا وسندًا، وتدوينها وضبطها بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفُصحاء من التابعين، عن الصحابة، عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو النص العربي الصحيح المتواتر الْمُجمَع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات، ولم تُعْنَ أُمةٌ بنصٍّ ما اعتناء المسلمين بنص قرآنهم".[7]

المبحث الأول: الاحتجاج بالقراءات القرآنية وموقف النحاة منه :

أما علماء القراءات فقدساروا على منهج الالتزام والمحافظة في ضبط القراءة وقدَّموا ثلاثة شروط لصحة القراءة كالتالي:

١- وصول سند القراءة بالتواتر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر.

٢- كون القراءة موافقة لرسم المصحف العثماني المجمَع عليه.

٣- كونها موافقة لوجهٍ من وجوه العربية. وقد صرَّح القراء والنحاة بأن القراءة سنة متَّبعة، وأنها لا تتابع إلا السماع الصحيح، أما القراءة الشاذة عندهم، فهي ما تَخلَّف أحد شروطها الثلاثة، والتواتر شرط أساسي لصحة القراءة، فإذا تخلَّف لم تَصِح القراءة بذلك الشاذ في الصلاة، وخير مَن يُمثِّل منهج القراء المقرئ الداني قائلًا: "وأئمة القرَّاء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردَّها قياس عربية، ولا فُشوُّ لغة؛ لأن القراءة سُنة مُتبعة يَلزَم قَبولها والمصيرُ إليها.[8]"

---

[6] جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، الاقتراح،٩٦

[7] سعيد الأفغاني، الأستاذ، في أصول النحو،(المكتب الإسلامي،١٩٨٧م)،٢٨

[8] ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (٨٣٣هـ)، **النشر في القراءات العشر**،(المطبعة التجارية الكبرى)،١: ١٠

منهج البصريين والكوفيين في تناوُل القراءات:

يقول الدكتور محمد خير الحلواني: "إن النحاة لم يكونوا على منهج واحد في أمر القراءات القرآنية التي تَخرُج عن قراءة الجمهور، فمنهم مَن ردَّ بعضها، وقَبِل بعضًا آخرَ، ومنهم مَن جعل قراءات القرآن كلها حُجة" .[9]

وتقول الدكتور خديجة الحديثي: "فالاستشهاد بالقراءات المتواترة غير المخالفة للقياس، سار عليه البصريون كما سار عليه الكوفيون، أما الاحتجاج بالقراءات الشاذة والقياس عليها، واعتبارها أصلًا من أصول الاستشهاد، فهو ليس من منهج البصريين؛ لأنهم لم يكونوا يعتبرون من القراءات حُجة إلا ما كان موافقًا لقواعدهم وأقْيِسَتهم، وأصولهم المقرَّرة، فإن خالَفتها ردُّوها، في حين كانت القراءات مصدرًا من مصادر النحو الكوفي" .[10]

وقد ذكرت الدكتور خديجة الحديثي أن مِن النحاة مَن توسَّط، فأجاز الاستشهادَ بها لا القياس عليها.[11]

وقد رفض الدكتور عبد العزيز الدليمي تعميم الحكم الذي يقول: تمَّ ردُّ القراءات الشاذة عند البصريين مع أنَّ الكوفيين قد قبِلوها مطلقًا، فيقول في ذلك: "أما ما نقلوه من أن الكوفيين هم الذين اعتمدوا على القراءات وقاسوا عليها، وأن البصريين وحْدهم هم الذين رفضوا بعض القراءات؛ لأنها تخالف أصولهم وأقيستهم – فهو قولٌ غير سديد. إن موقف النحاة واللغويين من القراءات موقف موحَّد لا يختلف فيه كوفي عن بصري، والحق أن كثيرًا من النحاة قد وقفوا من بعض القراءات موقفًا مجانبًا للصواب، ولكن هؤلاء النحاة لم يكونوا كلهم بصريين، فكما كان منهم بصريون؛ أمثال: المازني (ت:٢٠٩هـ)، والمبرد (ت:٢٨٥هـ)، والزجاج (ت:٣١٠هـ)، كان منهم أيضًا كوفيون؛ أمثال: الكسائي (ت:١٨٩هـ)، والفراء (ت:٢٠٧هـ)، بل ربما كان الكسائي هو الذي بدأ تَخطئة القرَّاء؛ إذ نرى الفراء يتوقَّف في كتابه (معاني القرآن) مرارًا؛ ليقول: إن الكسائي كان لا يُجيز القراءة بهذا الحرف أو ذاك، ويُفهَم من بعض نصوص معاني القرآن للفراء أنه يَرُدُّ بعض القراءات، ويَرمي بعض القرَّاء بالوهْم".[12]

---

[9] محمد خير الحلواني، الدكتور، **أصول النحو العربي**، إفريقيا الشرق،٢٠١١م)،٣٧

[10] خديجة الحديثي، الدكتورة، **الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه**،(الكويت: مطبوعات جامعة، سنة ١٩٧٤م)،٤٧

[11] المرجع السابق،١٣٨

[12] عبد العزيز الديلمي، **الدراسات النحوية واللغوية في البحر المحيط**،(رسالة دكتوراه)، سنة ١٩٩٢م،٨٠

والباحث يتفق مع الدكتور عبد العزيز كل الاتفاق، ودليلي ما ذكره شوقي ضيف من أن الإمامين الكسائي والفراء قد فتَحا للبصريين التالين لهما تَخْطئة بعض القراءات، بينما أغلق الكوفيون الذين خلَفوهما هذا الباب، وأن القارئ لكتاب سيبويه لا يجد أية تَخطئة لقراءة من القراءات مع أنه أكثر من الاستشهاد منها، بل إن سيبويه قد قام بصراحة قَبولها جميعًا ولو كانت شاذَّة عن ضوابطه؛ حيث قال سيبويه: "القراءة لا تُخالَف؛ لأنها السُّنة، وأن الخليل شيخ سيبويه كان يَحترم القراءات ولا يَطعُن فيها".[13]

موقف عيسى بن عمر الثقفي (ت:١٤٩هـ)

يقول القفطي: "يقال إن أبا الأسود لم يضع من النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط، وإن عيسى بن عمر وضع كتابه على الأكثر وبوَّبه وهذَّبه، وسَمَّى ما شذَّ عن الأكثر لغات، وكان يَطعُن على العرب، ويُخطِّئ المشاهير منهم؛ مثل: النابغة في بعض أشعاره، وغيره" .[14]

يقول عبد الصبور شاهين: "ولم يكن عيسى بن عمر أقلَّ من أبي عمرو جُرأةً في ردِّ هذه القراءات إذا لم تُوافِق مقياسه، فقد كان لعيسى منهج واضح أيضًا في النظر إلى لغات العرب".[15]

ويقول الدكتور محمود أيضًا: "والصحيح أنه كان يختار من المأثور ما يوافق مذهبه، ولعله وجد الفعل أقوى العوامل، فآثَر تقديره على غيره، فاختار مثلًا: ﴿والسارقَ والسارقةَ فاقطعوا أيديهما﴾[16] بالنصب" .[17]

موقف أبي عمرو بن العلاء (ت:١٥٤هـ)

يقول الدكتور محمد خير الحلواني: "وأول نحوي وقَفنا له على رأي في بعض القراءات هو أبو عمر بن العلاء، فقد ردَّ قراءة لمحمد بن مروان المدني، هي ﴿هؤلاء بناتي هنَّ أطهرَ لكم﴾[18]، بنصب أطهر، وجعل (هن) ضمير فصل لا إعراب له" .[19]

---

[13] شوقي ضيف، الدكتور، **المدارس النحوية**،(دار المعارف،١٩٦٨م)،١٥٧

[14] جمال الدين أبو الحسن القفطي، علي بن يوسف (٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة،(بيروت: المكتبة العصرية،ط١،١٤٢٤هـ)،٢: ٣٧٥

[15] عبد الصبور شاهين، الدكتور، **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**،(مكتبة الخانجي، دون تاريخ)،١٠٩

[16] المائدة: ٣٨

[17] محمود أحمد الصغير، الدكتور، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ١٠٩، ١١٠، بتصرف، وأبو جعفر النحَّاس، إعراب القرآن؛ أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (٣٣٨هـ)، إعراب القرآن، وضع حواشيه وعلَّق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون،(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ)،٣: ١٠٨،١٠٧

موقف سيبويه (ت: ١٨٠هـ)

تقول الدكتور خديجة الحديثي: "أما سيبويه – شيخ النحاة البصريين الذين كانوا يُخضعون القراءات لأقيستهم وإجماعهم وأصولهم التي وضعوها، وإن كانت من القراءات السبع التي اعتُمِدت ونُقِلت نقلًا متواترًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم عند أكثر الباحثين – فلم يَعِب قارئًا، ولم يُخطِّئ قراءة، بل كان يذكرها؛ ليُبين وجهًا من العربية فيها، وليُقوّي بها ما ورد عن العرب، وإن كانت القراءة من القراءات المفردة، لا يردها ولا يَصِفها بالشذوذ أو الخطأ، ولا يصف القارئ بالخطأ أو يَطعُن فيه، إنما يُحاول تخريجها على إحدى لغات العرب، وهو الذي يعتبر اللغات الواردة عن العرب فصيحة صحيحة، وليس المتكلم بها مخطئًا، فكيف يُخطِّئ القرَّاء وهم أئمة المسلمين وأعلامهم، وما قرؤوا به لا يُخالَف؟!" .[20]

يقول الدكتور محمود نحلة: "وأُثِر عن سيبويه استشهاده بما عُرِف من بعدُ بالقراءات الشاذة إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، فإذا خالفت القراءة القياس، أعرض عن ذكرها، وتجنَّب الإشارة إليها، أو ذكرها وذكَر رأي بعض أساتذته فيها دون تعقيبٍ منه، ومن ذلك أنه لم يذكر قراءة ابن عامر: ﴿كن فيكون﴾[21] بالنصب، وكذلك فعل في قراءة حمزة: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ﴾[22] بجر الأرحام عطفًا على الضمير دون إعادة الجار؛ لأن المضارع في الأولى لا ينصب عنده بالفاء في الأمر إلا إذا كان جوابًا له، ولأنه لا يجوز في الثانية عنده العطف على الضمير المجرور (محلًّا) إلا بإعادة الجار" .[23]

موقف المبرد (ت:٢٨٥هـ)

وكان المبرد يُعزِّز أقيسته بالقراءات، فقد استشهد بقراءة أُبَيّ، وعبد الله بن مسعود، والحسن البصري، والأعرج، وأبِي عمرو بن العلاء.[24]

---

[18] هود:٧٨

[19] محمد خير الحلواني، **أصول النحو العربي**،٣٧

[20] خديجة الحديثي، الدكتورة، **الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه**،٥١

[21] يسين:٨٢

[22] النساء: ١

[23] محمود نحلة، الدكتور، **أصول النحو العربي**،(بيروت: دارالعلوم العربية،١٩٨٧م)،٣٤،٣٥

[24] المبرد، حمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس(٢٨٥هـ)، **المقتضب**، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة،(القاهرة،الناشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث،٢٠١٠م)،٢: ٢٠٢ و ١: ٢٣٨

ولا شك أن البصريين ينتمون إلى مدرسة واحدة، ولكننا نجد عند بعضهم اجتهادات فردية كالمبرِّد، ويبدو لنا أنَّ ردَّهُ بعض القراءات صادر بسبب الشك في الرواية، أو التمسك بالأصل النحوي، وقد أُخِذ عليه ردُّهُ بعض القراءات، وصنيعُهُ هذا اقتدى فيه بشيخه المازني؛ إذ نقل في مقتضبه ما أثبته المازني في تصريفه، وقد وصف الأستاذ المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة هذا الصنيع بأنه حملةٌ آثمةٌ على القُراء.[25]

ولا يُنكَر أنَّ المبرِّد ردَّ بعض القراءات أو رجَّحَ وجهًا على وجهٍ، ومن هذه القراءات قوله تعالى: ''أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ''[26]، وهي قراءة السبعة، ويبدو أن المبرِّد اختار قراءة (حَصِرةً)، واختيارُهُ هذا قريبٌ إلى قياس العربية في دَلالتها على الحال؛ لأن قراءة (حَصِرت) بالْمُضي تدلُّ على الدعاء، وقد عدَّ الأستاذ عضيمة قول المبرِّد هذا جرأةً منه، وقراءة (حَصِرةً) هي قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي.[27]

وبذلك يتَّضح موقف المبرد من القراءات؛ إذ كان شأنه في ذلك شأن معظم البصريين الذين كانوا يردون بعض القراءات لمخالفتها أقْيستهم النحوية فحسب.

موقف ابن جني (ت: ٣٩٢هـ)

يقول الشيخ سعيد الأفغاني: "مذهب ابن جني الاحتجاج في العربية بالقراءة الشاذة، وقد ألَّف في ذلك كتابه المحتسب، جمَع فيه شواذ القراءات، ووجَّهها واحتجَّ لها، وصنيعه ذلك هو الصواب".[28]

موقف ابن مالك (ت: ٦٧٢هـ)

تقول الدكتور خديجة الحديثي: "وقد وقف ابن مالك من القراءات موقفًا مغايرًا؛ حيث كان يستشهد بالقراءات الصحيحة المتواترة، كما كان يأخذ بالقراءات الشاذة" .[29]

وقد ذكرت الدكتور خديجة أيضًا أن ابن مالك لم يكن يجد حَرَجًا من الاعتماد على القراءات الشاذة في بناء القواعد والأقيسة، ومثال ذلك اعتماده على قراءة شاذة لأعرابي في قوله تعالى:''صِراط الْذين''[30] بتخفيف اللام، فراح يجعل من هذه القراءة قاعدة قاس عليها جواز تخفيف اللام في الأسماء

---

[25] يُنظر، عبد الخالق عضيمة، مقدمة تحقيق المقتضب؛ ١: ١١١، وظاهرة تخطئة النحويين للفصحاء والقرَّاء؛ بحث للدكتور عبد الجبار علوان النايلة، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٣٧، الجزء الأول،٣٠٢، سنة ١٩٨٦م.

[26] النساء: ٩٠

[27] ينظر،المبرد، المقتضب،٤: ١٢٤،١٢٥

[28] سعيد الأفغاني، الأستاذ(١٩٩٧م)، **في أصول النحو**،(بيروت:المكتب الإسلامي،١٩٨٧م)،٤٥

[29] خديجة الحديثي، الدكتورة، **الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه**، ٥٠

[30] البقرة: ٧

الموصولة الأخرى، وابن مالك قد بنى هذه القاعدة وقاس من دون أن يَعرِف صحة هذه القراءة أو خطأها، ومدى تواتُرها، أو كونها من الآحاد التي انفرَد بقراءتها هذا القارئ، دون اعتماد على سماعٍ أو تحقُّقٍ من صحة راويها .[31]

موقف أبي حيان الأندلسي (ت:٧٤٥هـ)

تقول الدكتورة خديجة الحديثي: "أما أبو حيان فقد وقف موقفًا وسطًا بين المدرستين، فلم يتشدَّد فيها تشدُّد البصريين، فيَرفض كلَّ ما خالَف القواعد والأقْيسَة التي بنَوها، ولم يتساهل تساهُلَ الكوفيين وابن مالك، فيَعتمد على الشاذ منها، أو على ما تفرَّد بقراءته شخصٌ لا يَعرِف من القراءة شيئًا، وكان يعتمد على صحة القراءة وتواتُرها، فهو يرى أن القراءات قد جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها، ولكن لا يجوز أن يُؤخذ بجميعها، إنما يجب الأخذ بما صحَّت روايته منها، لذلك نجده يأخذ بقراءة السبعة ويعتمد عليها، ويبني القاعدة على ما وردت به هذه القراءة، حتى ولو كانت مخالفة لنصوص النحاة البصريين وأقْيستهم؛ لأن القرَّاء السبعة عربٌ أفْحاح عُدول، تلقَّى أكثرهم القراءة عن الصحابة، فأعلى القراءات وأصحها عنده ما أجمعت عليه السبعة" .[32]

ويقول الدكتور عبد العزيز: "وفيما يخص القراءات فإنه لا يُضعِّفها، لذلك نراه يلتمس لها وجهًا للصواب، فيقول: وما قُرِئ في السبعة لا يُرَد، ولا يُوصَف بضَعْفٍ ولا بقِلَّة، ولا يُفاضَل بين القراءات المتواترة، فهي في الصحة على حدٍّ سواء.

ونادرًا ما كان يحكم على قراءة من القراءات بأنها ضعيفة، أو يُفضِّل قراءة على أخرى، ويعترف أبو حيان بأن بعض القراءات عَسِرة، ويَنفرد بتخريج القراءات التي لَمْ يخرِّجها غيره، كتخريجه لقراءة ابن السميفع، ولكنه لا يَبني عليها قاعدة، وقد يُخرِّج القراءات الشاذة تخريج شذوذ، يقول: وهذا التوجيه ضعيف أيضًا، وهو توجيه شذوذ".[33]

يتضح من كلام الدكتور عبد العزيز أن أبا حيان كانت نظرته إلى القراءات تتمثل في:

١- الدفاع عن القرَّاء وقراءاتهم، والتصدي للطعن فيهم وفي عربيَّتهم، كما حدث مع الزمخشري.

٢- عدم تضعيفه للقراءات، ومحاولة التماس أوجه الصواب لهذا القراءات.

٣- عدم المفاضلة بين القراءات المتواترة، فكلها في الصحة على حدٍّ سواء.

٤- تفرُّده بتخريج بعض القراءات التي لم يُخرِّجها غيره، كتخريجه قراءةَ ابن السميفع.

---

[31] خديجة الحديثي، الدكتورة، **الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه**، ٥٠

[32] المرجع السابق، ٤٩

[33] الديلمي، **رسالة الدراسات النحوية واللغوية في البحر المحيط**،٨٦

موقف السيوطي (ت: ٩١١هـ)

يقول السيوطي: "أما القرآن فكل ما ورَد أنه قُرِئ به، جاز الاحتجاج به في العربية؛ سواءً كان متواترًا، أم آحادًا، أم شاذًّا. وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تُخالف قياسًا معروفًا، بل ولو خالفته يُحتجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يَجُز القياس عليه، كما يُحتج بالْمُجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه، ولا يُقاس عليه؛ نحو: (استحوَذَ)، و(يَأْبَى)، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءات الشاذة لا أعلم فيه خلافًا بين النحاة، وإن اختلف في الاحتجاج بها في الفقه، ومِن ثَم احتُجَّ على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بقراءة: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا﴾[34]، كما احتُجَّ على إدخالها على المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾.[35]"[36]

يقول الدكتور عصام أبو غربية: "اهتم السيوطي بالقراءات القرآنية جميعها – المتواتر منها والشاذ – ولم يكن كالقدماء في عدم اعتداده بالشاذ، بل استشهد بالقراءات الشاذة، وكان في بعض المواضع يَعزوها إلى أصحابها، فقد استشهد بقراءة أبي قِلابة: ﴿مَن الكذاب الأَشَرُّ﴾[37] على حذف الهمزة من (خير وشر)، وقراءة أبي حَيْوة: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾[38] بالتشديد، وفسَّره ابن مِهْران بأنه جبريل".[39] وأيضًا استشهاده بما قُرِئ في الشاذ: ﴿أَوَكلما عاهَدوا﴾[40] "بسكون الواو، وذلك من تسكين المفتوح؛ لثِقَل الحركة على الواو، وليست على هذا الوجه للعطف، بل هي في معنى المفتوحة" .[41]

المبحث الثاني: أثر القراءات القرآنية في القواعد النحوية

هناك نرى أثرًا واضحًا وجليًّا في علوم العربية، حتى بدأ فضيلة الشيخ د. محمد سالم محيسن أن يؤلِّف كتابًا قيِّمًا باسم "القراءات وأثرها في علوم العربية" في مجلدين كبيرين، ونرى بعض عناوين كتابه المذكور أنفًا:

---

[34] وهي قراءة يزيد بن القعقاع(١٣٢هـ)، وقد قرأ الجمهور، (فبذلك فليَفْرحوا)، وفي مصحف أُبَي،(فبذلك فافرحوا).

[35] العنكبوت: ١٢

[36] جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)، **الاقتراح**،٩٦-٩٧

[37] القمر: ٢٦

[38] مريم: ١٧

[39] عصام أبو غربية، أصول النحو عند السيوطي بين النظرية والتطبيق، **الهيئة العامة المصرية للكتاب**،٢٠٠٦م،٧١

[40] البقرة: ١٠٠

[41] عصام أبو غربية، **أصول النحو عند السيوطي بين النظرية والتطبيق**،٧١،٧٢

١- "أثر القراءات في اللهجات العربية من حيث أصواتها مثل ظاهرة الإدغام والإظهار وظاهرة النقل وظاهرة التسهيل وغير ذلك".

٢- " أثر القراءات في اللهجات العربية من حيث الألفاظ المعربة في القرآن مثل: جبريل- ميكائيل- إبراهيم- زكريا- زبورا- آزر- اليسع".

٣- "أثر القراءات في بيان الجامد والمشتق اللغوي".

٤- " أثر القراءات في البلاغة العربية مثل: الحذف والذكر والالتفات."

إلى غير ذلك من الأبواب الكثيرة التي ذكرها الشيخ محمد سالم محيسن، ولا نستطيع أن نبسطها ونسردها، فمن أراد أن يتعرف على أثر القراءات في علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة بالدقة فليرجع إلى الكتاب القيم: "القراءات وأثرها في علوم العربية".

إن المصحف الشريف المتداول اليوم في أقطار العالمين الإسلامي والعربي يستند إلى أربع روايات هي الأكثر شهرة ورفعة لدى علماء القراءات، وفي مقدمتها قراءة حفص التي يقرأ بها أهل مصر وشرق إفريقيا وغيرهما من البلدان الأخرى، ويقرأ برواية ورش شمال إفريقيا ووسطها وغربها، ورواية قالون يتلو بها معظم أهل ليبيا وموريتانيا، وبعض سكان تونس والجزائر، أما رواية الدوري فيقرأ بها أكثر أهل السودان والأمر الذي يستوقفنا من هذا كله هو ما حدث سنة ثلاثين للهجرة، ففي هذه السنة كان حذيفة بن اليمان (ت:٣٦هـ) يعالج ما رآه من تناحر أهل الشام وأهل العراق، وما كان عليه جنوده من تطاحن بأذربيجان وأرمينية حتى أدى بهم هذا الأمر إلى خلافات كان يلاحظها كل فريق لدى قراءة الفريق الآخر من القرآن الكريم، فلم ير بدا من الذهاب إلى عثمان بن عفان ليصور له خطورة الموقف بين القراء وقد طلب من عثمان أن يضع حدا لتلك الخلافات.

والجدير بالذكر نجد أن كتب التاريخ والمؤلفات في علوم القراءات تكاد تجمع على أن تلك الخلافات بين القراءات راجعة إلى اختلاف نسخ المصاحف التي كان يقرأ بها قراء الأمصار مثل مصحف أبي بن كعب الذي كان يقرأ به أهل دمشق، ومصحف المقداد بن عمرو الذي كان يقرأ به أهل حمص، ومصحف عبد الله بن مسعود الذي كان يقرأ به أهل الكوفة، ومصحف أبي موسى الأشعري الذي كان يقرأ به أصحاب البصرة .[42]

[42] عفيف دمشقية، الدكتور، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، معهد الإنماء العربي، المركز الرئيسي، طرابلس،(لبنان، بيروت: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، فرع ط١، ١٩٧٨م)،٧٣

نماذج تطبيقية للقراءات:

فالقراءة المشهورة، قال الحق سبحانه وتعالى ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات﴾[43]. قرأ حمزة والكسائي وخلف برفع أربع، وقرأعاصم ونافع وابن عامر وأبوعمرو وابن كثير بنصب اللفظة المذكورة، وهي "أربع "، وفي هذه الحال تعرب "شهادة" بوجهين: الأول: أنها خبر لمبتدأ محذوف أي "فالواجب شهادة"، الثاني: أنها مبتدأ، والخبر محذوف أي "فعليهم شهادة أحدهم"، وجاء في قراءة أخرى: ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾[44].. قرأ يعقوب وحده بنصب الفعلين "يضيق وينطلق"، وقرأ الباقون أي القراء السابقون برفع كل من الفعلين: "يضيق وينطلق"، ورفع الفعل "يضيق" على الإستئناف كأنه قال: وأنا يضيق صدري. أما قراءة النصب فهي بالعطف على الفعل المنصوب في الآية المذكورة: أن يكذبون. وهذا نص شريف آخر، هو ﴿ولسليمان الريح﴾[45]، قرأ الإمام عاصم برفع الكلمة وقرأ باقي القراء بالنصب على تأويل (وسخرنا لسليمان الريح)، أما قراءة الرفع فهي على أن الريح مبتدأ خبره ﴿لسليمان﴾. وقال الحق سبحانه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا﴾ .[46]

قد وردت القراءة من ابن كثير وأبي عمر ويعقوب برفع لفظة "يوم"، وقرأ الباقون بنصبها، وتعليل رفع ميم "يوم" فعلى تقدير "هو يوم"[47]. أما نصب يوم، فهو على وجوه، 1: على تقدير أعني. 2: يريدون على تقدير يجازون، وقال جل وعلا ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ .[48]

قرأ الجمهور بجر لفظة "محفوظ". وقرأ نافع وحده برفع الكلمة. فجر كلمة محفوظ يعود إلى أنها نعت لكلمة "لوح"، وأما الرفع فيعود إلى أنها نعت للفظة "قرآن"، ومن النصوص التي تتعلق بتأثير القراءات في الدرس النحوي قوله تعالى: ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾[49]. قرأ عاصم وحده بنصب "حمالة"، وقرأ الباقون برفع اللفظة المذكورة، ويتضح حكم الرفع أنه ورد على وجهين الوجه الأول نعت لامرأة، والوجه الثاني أنه

---

[43] النور: ٦

[44] الشعراء: ١٣

[45] سبأ: ١٢

[46] الانفطار: ١٩

[47] شلبي، عبد الفتاح إسماعيل (٥٦٥هـ)، رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات في الدراسات القرآنية واللغوية، (مصر: مكتبة نهضة، ١٩٦٠م)، ٩١

[48] البروج: ٢٢

[49] المسد: ٤

خبر لمبتدأ محذوف والتقدير "هي حمالة الحطب"، وفي نص "جيدها حبل" مبتدأ وخبر في موضع الحال ونصب "حمالة" فهو على الحال وحكم الحال أنه دائما يكون في محل نصب ومن هذه النصوص أيضا قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾[50]، القراءات قرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب برفع الفعلين: يغفر ويعذب. وقرأ الباقون بالجزم أي يغفرْ ويعذبْ، وقراءة الرفع تكون على الاستئناف بالفاء بعد تمام الجواب، أي فهو يغفر. أما قراءة جزم الفعلين فيكون بالعطف على جواب الشرط، وأما قراءة النصب فهي على اعتبار الفاء للسببية لأن جواب الشرط قد ذكر.[51]

المبحث الثالث: أثر القراءات في القواعد النحوية عند السمين في الدر المصون

صاحب الدر المصون هو أحمد بن يوسف الحلبي، والسمين هو لقبه[52]. واتفق معظم المؤرخين على أن المقرئ السمين الحلبي قد ترعرع بحلب، وقد عُرف هنا بلقبه السمين، وحسب العادة تحوَّل إلى القاهرة مدينة الثقافة مثلما كان ذلك علماء حلب والشام، لكون القاهرة وقتئذٍ مركز الدين الحنيف وعاصمة الإمارة في عصر المماليك، واستوطنها إلى آخر عمره، إلى أن أصبح معروفًا بالمصري مكان الحلبي[53]، ومن هنا وقف شهاب الدين أحمد المصري نفسه وحياته كلها لمصر، وهناك أخذ اسمه الشهرة والسمعة الحسنة في الأوساط العلمية بمصر، وتوسعت علومه وانتشرت فنونه فيما بين الناس، ومع ذلك لا نجد أية معلومة تدلُّ مدة حياته في مدينته الأصلية حلب، وحتى تاريخ تحوُّله منها.[54]

---

[50] البقرة: ٢٨٤

[51] لبيب صاعد، دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطبري المفسر،(دار المعارف، ١٩٧٨م)،٧٠

[52] العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر(٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (بيروت: دار الجيل)،١: ٣٣٩؛ والسيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ)،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،(بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م)،١: ٤٤٠

[53] ابن قاضي شهبة، الإمام تقي الدبن الأسدي الشافعي(٨٥١هـ)،طبقات الشافعية،(بيروت، لبنان: عالم الكتب، ط١،١٩٨٧م)،٣: ١٨؛ وابن العماد الحنبلي، شهاب الدبن أبو الفلاح بن أحمد بن محمد العطري الحنبلي الدمشقي (١٠٨٩هـ)،شذرات الذهب في أخبار من ذهب،(بيروت، لبنان: دار المسير، ط٢، ١٩٧٩م)،٦: ١٧٩

[54] السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (٧٥٦هـ)،الدر المصون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط،(دمشق وبيروت: دارالقلم، ط١، ١٩٨٦م)،١: ١٤

ويبدو أنه نال مكانة مرموقة أثناء قيامه في مصر، فقد بدأ بتدريس علمي النحو والقراءات في جامع ابن طولون، كما تولى مهام الأوقاف بالقاهرة، وأقيم مقام بعض القضاة فيها[55]. كما قام بالتدريس في مسجد الإمام الشافعي[56]. وتسافر في المدن المصرية، فانتقل إلى معلِّمه الأستاذالعشاب بالإسكندرية ليتلقَّى منه قراءة الحروف .[57]

لقد عُرف أيضًا عنه أنه كانت له براعة كاملة في فن القراءات، لقيامه بتدريسها وإقراءها .[58]ومؤلفه الدر المصون أصدق شاهد على أن الشيخ قد تحصل التعمق والدقة في فن القراءات. فقد أورد السمين في مؤلفه الدر المصون مجموعة كبيرة من كلتا القراءات الشاذة والمتواترة .[59]

وقد ألَّف كتابا هامًّا في هذا الفن باسم "شرح الشاطبية"، عرَّفه المقرئ ابن الجوزي هكذا: "شرح لم يُسبق إلى مثله" .[60]ويُرى أن السمين الحلبي قد تفقه علوم العربية وقام بتمثلها، ومؤلفه الدر المصون أحسن دليل على ذلك .[61]

وكأنَّ لصاحبنا الإمام السمين الحلبي تراث طيب ينبو عن معرفته الواسعة ومكانته المرموقة، ومن مؤلفاته الدر المصون، وتفسير القرآن، والقول الوجيز، وشرح التسهيل، وشرح الشاطبية، وهو في فن القراءات، وغيرها. فهذه ذخيرة غنية تشهد عن عقلية شيخنا المتفردة وفكره الواسع الذي أحاط به علوم العربية والشرعية. وبعد حياة حافلة بالعطاء والتأليف، فقد انتقل إلى رحمة ربِّه في القاهرة عام ست وخمسين وسبع مائة.[62]

الدر المصون ومكانته العلمية:

لا يستطيع أحد أن يرفض مجهودات العلماء الأفاضل الذين قدَموا خدمات جليلة في اللغة وعلم الدين الحنيف، وما ورّثه هؤلاء العلماء الأخلاف من تراث علمي واسع شاهد عدل على تلك المجهودات

---

[55] ابن حجر العسقلاني(٨٥٢هـ)،الدرر الكامنة،١: ٣٣٩

[56] جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)،**حسن المحاضرة**،١: ٤٤٠؛ والزركلي،خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،(بيروت، لبنان: دارالعلم للملايين،ط١٦،٢٠٠٥م)،١: ٧٤١

[57] ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد(٨٣٣هـ)،غاية النهاية في طبقات القراء،(بيروت، لبنان: دارالكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٦م)،١: ٢٧٤

[58] الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم(٧٧٢هـ)،**طبقات الشافعية**،(بيروت، لبنان: دارالفكر،ط١: ١٩٩٦م)،٤٢٢

[59] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)،**الدر المصون**، تحقيق الخراط، ١: ١٥

[60] ابن الجزري(٨٣٣هـ)،**غاية النهاية**،١: ١٣٨

[61] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)،**الدر المصون**، تحقيق الخراط، ١: ١٤

[62] جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)،**حسن المحاضرة**،١: ٤٤٠

التي قاموا ببذلها في ذلك البحر الباحر، كما لا يرفض أحد مكانة المؤلفات المرموقة التي ألفوها ملخص فكرهم الثاقب وثمرة عملهم العظيم.

يقول حاجي خليفة عن الدر المصون: "فهو مع اشتماله على غيره أجلّ ما صنّف فيه – أي علم إعراب القرآن – لأنه جمع العلوم الخمسة: الإعراب، والتصريف، واللغة، والمعاني، والبيان" .[63]

ويقول السيوطي أيضًا عنه: "وكتاب السمين أجلّها..." .[64]

ويقول العلامة الداوودي أيضًا عنه.... "ألّفه في حياة شيخه الاَّ أنَّه زاد عليه، وناقشه في مواضع مناقشة حسنة".[65]

وفي ضوء هذه الآراء المذكورة آنفًا نحن نستطيع أن ندرك مكانة الدر المصون العلمية العالية وشأنه المرموق العظيم. ومن يقرأ هذا الكتاب يجد أنَّ السمين قد تلقى مواده العلمية من مؤلفات العلماء السابقين الأولين، ويرى متأثرًا شديدًا بأسلوب ومنهج أستاذه وشيخه أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط، فقد سار السمين حسب منهج أستاذه الجليل الذي يتكئ على استقراء الآراء من مؤلفات السابقين، وتقديمها، وإيراد النصوص وتأليفها وبذل الجهد الشاق في استيفاء الحديث على قضايا هذا الكتاب، وإتيان القراءات المشهورة والشاذة وما أورد العلماء السابقون من الآراء في توجيهها، ثم يستوقف السمين نفسه أمام هذه الآراء موقف المنضد والناقد لها فمرةً يفضِّل بعضها على بعض، وتارةً يمرِّض مع الدليل لكلٍّ ما يذكر.

إذا تصفحنا نصوص الدر المصون وناقشنا أبعادها، يرى أن السمين رجل ملتزم محافظ في القراءات القرآنيّة. وقد تكون هذه الفكرة نابعة بشرف حصول علمه الغزير على شيخه أبي حيان صاحب الالتزام والمحافظة.

أمثلة القراءات في الدر المصون:

لقد ذكر السمين موقفه عن القراءات قائلًا: "وكلُّ ما ورد أنَّه قرئ به: جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا أم أحادًا أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذَّة في العربيَّة اذا

---

[63] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله(١٠٩٧هـ)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**،(بيروت، لبنان: دارالفكر، ١٩٨٢م)،١: ١٢٢

[64] السيوطي،جلال الدين(٩١١هـ)،**الإتقان في علوم القرآن**، تقديم وتعليق للدكتور مصطفى ديب البُغا،(دمشق: دارابن كثير، ط١، ١٩٨٧م)،١: ١٨٩

[65] الداوودي، شمس الدين(٩٤٥هـ)،**طبقات المفسرين**،(بيروت، لبنان: دارالكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣م)،١: ١٠٠

لم تخالف قياسًا معروفًا، بل ولو خالفته يحتجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه، كما يحتجُّ بالمجمع على وروده ومخالفته للقياس في ذلك الوارد بعينه".[66]

وإن السمين سار من سائر القراءات مسير الالتزام بها وإجلال ما أتت به، احترام ما جاءت به فإن كانت من سبيل القراءة المتواترة أسرع في قبولها قبولًا كاملًا، ولم يسر السمين الحلبي على طرق علماء النحو المتقدمين أمثال الزمخشري والزجاج وأبي حاتم والنحاس لحروفها العديدة ولو لمرة واحدة، لأجل ذلك كتاب السمين الحلبي مليئ بكل من القراءات المتواترة والشاذة، فكل من عرض هذه القراءات وتخريجها والإفادة منها، يدلُّ على اهتمام السمين الكثير. ومع كل هذا نرى التزام السمين الحلبي بها التزام الرجل البصير الواعي. ولأجل ذلك يستشهد السمين من ثقافته الغزيرة واطلاعه الواسع على اللغة العربية وأصولها وطرائقها في التعبير والكتابة، ولإيصال هذا الغرض الواضح نذكر بعض المثلة كالتالي:

١- في قول الله:''وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ'' [67]وردت القراءة من حمزة بالخطاب، وتمَّ الحكم على هذه القراءة باللحن من المقرأين أبي حاتم والنحاس، فقام السمين بالرد عليهما قائلًا: "وهذا لا يلتفت إليه لتواترها، وفي تخريجها ستة أوجه"[68]. ثم بدأ يعرض كل الأوجه مدعومة مستشهدة بالسماع والتعليلات مما يشير إلى ثقافته الغزيرة في هذا المجال.

٢- وفي قول الله: ﴿فَلأُمِّهِ﴾ [69]جاءت القراءة من حمزة والكسائي بكسر الهمزة وقالا: "إنّ كسر همزة أمّ بعد الكسرة حكاه سيبويه لغة عن العرب، ونسبت إلى هوازن وهذيل"[70]. كذلك نرى في المثالين المذكورين بأن صاحب الدر المصون ربط القراءات بالمتواتر بوحدة معنوية أو صناعية، فكان حريصًا على ذكر نسبة القراءات الشاذة الواردة في الآيات القرآنية إلى أصحابها، إن أمدته مراجعه.

٣- وأيضًا نراه قد يبرِّر للقراءة الشاذة من فكرة أحد علماء النحو الذي يجيز القاعدة النحوية التي نسبت إليها هذه القراءة: فقد عُرف "أنّ الجمهور يُوجبون تأنيث الفعل إذا أسند إلى ضمير مستتر، ومذهب ابن كيسان يجيز التأنيث والتذكير"، وقد خرَّج الشيخ الحلبي قراءة مجاهد: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا

---

[66] جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)، **الاقتراح**،٤٨

[67] آل عمران: ١٧٨

[68] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)، **الدر المصون**،٣: ٤٩٧، وما بعدها.

[69] النساء: ١١

[70] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)،**الدر المصون**،٣: ٦٠١-٦٠٢

فِئَةٌ يُقَاتِلُ﴾ [71] بالياء من تحت على فكرة ابن كيسان وقال: "والّذي حسَّن ذلك كونُ "فئة" في معنى القوم والناس، فلذلك عاد الضميرُ عليها مذكّرا". [72]

٤- وأيضًا تم التخريج من السمين الحلبي للقراءة الشاذة على لغة إحدى القبائل العربية، فقد وردت القراءة من سيدنا ابن عباسؓ في قول الله سبحانه وتعالى:''شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ'' [73] بكسر الهمزة. فقال السمين: "إنّه أجرى شهد مجرى القول لأنه بمعناه، ويؤيّده ما نقله المؤرّج إنّ شهد بمعنى قال لغة قيس بن عيلان". [74]

من نتائج البحث:

١- أن أصول النحو تنقسم إلى قسمين؛ أصول سماعية، وأخرى عقلية، فالسماعية مثل كتاب الله وسنة رسول الله والكلام العربي الفصيح، والأصول العقلية مثل القياس والتعليل.

٢- أن المبادئ الأولية للدراسة النحوية لها اتصال مباشر مع القرآن الكريم؛ إذ قام النحو خدمته وحمايته من اللحن والتحريف، ثم تطوَّر فشمِل بلاغته وإعجازه، وتجاوزت دراسة تأويله وتفسيره، ثم دراسته دراسة صوتية لمعرفة مخارج الحروف وتأثير بعضها في بعض.

٣- أن علماء القراءات قد عرَّفوا القراءة بتعريفات كثيرة، وبعض هذه التعريفات تتقارب المطلوب، وبعضها الأخرى تتباعد قليلًا، وهناك أيضًا توجد تعريفات متداخلة.

٤- أن الاحتجاج للقراءة كفن من فنون القراءات، قام ربط تطوُّره بها منذ بدأت حروفًا متفرقة إلى أن صارت عِلمًا مستقلًّا، فقد كان في أول عهده غضًّا، يقتصر على المشابهات القريبة التي تعقد بين القراءات أو سائر أساليب اللغة في اللفظ أو المعنى أو التركيب.

٥- أن لعلماء القراءات منهجًا خاصًّا في تناوُل القراءة.

٦- أن النحاة لم يكونوا على منهج واحد في أمر القراءات القرآنية التي تخرج عن قراءة الجمهور، فمنهم مَن ردَّ بعضها، وقَبِل بعضًا آخر، ومنهم مَن جعل قراءات القرآن كلها حُجة.

٧- أن القراءات تعد من أهم مراجع النحو الكوفي، ولكن البصريين قد جمعوا سائر النصوص اللغوية، وقاموا بإخضاعها لأصولهم ومقاييسهم، فما وافَق منها أصولهم ولو بالتأويل، قبِلوه، وما أباها رفضوا

---

[71] آل عمران:١٣

[72] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)، **الدر المصون**،٣: ٤٧

[73] آل عمران: ١٨

[74] السمين الحلبي(٧٥٦هـ)، **الدر المصون**، ٣: ٧٤

الاحتجاج به، ووصفوه بالشذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثيرٍ من الروايات اللغوية، وعدُّوها شاذَّة، تُحفظ ولا يُقاس عليها.

٨- أن لأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وسيبويه، والفراء والأخفش – منهجَهم الخاص في قَبول ورفْض القراءة.

٩- أن بعض النحاة قد أخطؤوا بردِّهم بعض القراءات لمجرد أنها قد خالَفت أقيستهم، وأخطؤوا أيضًا عندما طعَن بعضهم في أمانة القرَّاء. أن من العلماء مَن لَم يُعلل عدمَ قَبول بعض النحاة القراءات – وخصوصًا الشاذة – بعدم موافقتها للأقْيسة والقواعد التي وضعوها فحسب، وإنما أرجع ذلك إلى ما يُسمى بالتحرُّز الديني، أو الرهبة الدينية والعُرف الديني الذي منَعهم من الاحتجاج بهذه القراءات.